من بلاغة القرآن الكريم
في
سورة الفجر

دكتور

محمد محمد الطاهر محمد

مدرس البلاغة والنقد

بكلية الدراسات الإسلامية والعربية بقنا

مقدمة

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ. الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ. مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ. إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ. اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ. صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ. آمين﴾

وبعد،

يعد القرآن الكريم مجالاً خصباً للدراسات بمختلف أنواعها، وقد اختص الحق سبحانه بعضاً من خلقه اعتكفوا على كتاب الله، وهداهم سبحانه إلى الكشف عن بعض أسراره، والوقوف على إعجازه.

والدراسات البلاغية واحدة من أهم تلك الدراسات التي اتخذت من القرآن الكريم منهجاً تنهل منه، فتناولت ألفاظه وعباراته وأساليبه وآياته وسوره، مشتملاً كل ذلك على ما حواه الكتاب العزيز من ألوان بلاغيه شتى كالاستعارات والكنايات والتشبيهات... وغير ذلك من فنون علوم البلاغة الثلاثة، ولا تزال تلك الدراسات ممتدة تكشف عن مكنون المعجزة الخالدة التي تكفل الله سبحانه وتعالى بحفظها حيث قال: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾[1].

والدراسة التي بين أيدينا تناولت فيها سورة من سور القرآن العظيم دفعتني إلى التأمل في آياتها، وإبراز ما وفقني الله تعالى إليه من الأسرار البلاغية الموجودة بها، ووجدت في كل ذلك تنوعاً في الفنون البلاغية التي اشتملت عليها تلك السورة المعجزة.

وقد انتهجت منهجاً للسورة يتلخص في تناولها حسب أغراضها، فقسمت السورة إلى أغراض، ثم أبدأ بتفسير مفردات الآيات التي تشكل هذا الغرض، وبعد ذلك أقوم بشرح إجمالي للمعنى العام لتلك الآيات، ثم أقوم بتحليل بلاغي أكشف فيه ما اشتمل عليه كل غرض من مباحث بلاغية.

وقد وجدت كثيراً من الدراسات البلاغية تعتمد هذا المنهج، حيث يلحظ فيه فوائد جمة مثل تجنب التكرار لدراسة الآية الواحدة عدة مرات، لأنني أدرسها دراسة تحليلية واحدة أسوق خلالها ما اشتملت عليه تلك الآية من فنون البلاغة المختلفة، وذلك بدلاً من دراساتها تحت باب التشبيه مثلاً، ثم تحت باب الاستعارة... وهكذا.

وأسأل الله تعالى التوفيق والهداية، وأن يجعل هذا العمل خالصاً لوجه الكريم وأن يجعله علماً ينتفع به إنه سبحانه سميع الدعاء.

---

(1) سورة الحجر آية (9).

تمهيد:

سورة الفجر من السور المكية تميزت بما اشتمل عليه القرآن المكي، من زجر ووعيد لكفار مكة، وضرب الأمثلة بمن قبلهم ممن كذب الرسل فاستحقوا العذاب الأليم في الدنيا والآخرة.

وعدد آياتها ثلاثون آية، وترتيبها في المصحف الشريف التاسع والثمانون من سور القرآن العظيم.

نزلت بعد سورة الليل، وقبل سورة الضحى، وقد عدت العاشرة في عداد نزول السور، وتقع في المصحف الشريف بعد سورة الغاشية[1].

وعدد كلماتها مائة وست وثلاثون كلمة، وحروفها خمسمائة وستة وستون حرفاً.

ويلحظ أنها جاءت في سلسلة من السور التي بدأت بالقسم بأشياء عظيمة، وتدل على الوحدانية والنعم الربانية.

فقد شد انتباهي ولفت نظري في هذه السورة الكريمة أنها بدأت بالقسم بأشياء عظيمة متتالية لها فوائد جليلة دينية ودنيوية.

كما أنها رغم قصرها إلا أنها حوت أغراضا عديدة ومتنوعة، فتجد مشاهدها تتعدد مع تعدد أغراضها، فتارة تجد شدة في الألفاظ وقوة في العبارات، وتارة تجد لينا وسهولة، كما حوت السورة تصويراً دقيقاً للنفس البشرية، كذلك تجد تنوعاً في الفواصل وحروفها.

ولم يختلف في تسمية هذه السورة "سورة الفجر" بدون الواو في المصاحف والتفاسير وكتب السنة"[2].

---

(1) ينظر التفسير الوسيط ٥٣٦/٣٠.

(2) التحرير والتنوير ٣٦١/٣٠.

مناسبة السورة لما قبلها:

لما ذكر سبحانه في السورة التي قبلها وهي سورة "الغاشية" قوله تعالى: "وجوه يومئذ خاشعة.....ووجوه يؤمئذ ناعمة" ناسب أن يذكر في سورة الفجر هذين النوعين، والوجوه الناعمة في سورة الفجر قوله تعالى: "يا أيتها النفس المطمئنة..." والوجوه الخاشعة ملحوظة في ذكر عاد وثمود وفرعون.

وتجد في سورة "الفجر" ما يتعلق بأمر الغاشية.

وأيضاً فإن قوله تعالى في السورة التي قبلها: "أفلا ينظرون إلي الإبل كيف خلقت وإلى السماء كيف رفعت..." من ذكر لآيات الله تعالى في الكون، وما تنطق به تلك الآيات من وحدانية، ناسب ذلك ذكر ما يماثل تلك الآيات بادئاً بالفجر والليال العشر..." حيث الدليل القاطع والبرهان الساطع على تفرده سبحانه بنظام الكون ونعمه على عباده[1].

وفي سورة الغاشية وعد ووعيد، وقد اشتملت سورة "الفجر" علي ذلك أيضاً.

وكل ذلك وغيره يبرز الصلة المناسبة بين السورتين.

أغراض السورة:

لقد تنوعت أغراض هذه السورة وتعددت مقاصدها على النحو التالي:

أولاً: القسم مع التهديد والوعيد للكفار والمعاندين، مع ضرب المثل بمن كان قبلهم من الكفار وما حل عليهم من عذاب، وذكر منهم عاد وثمود وفرعون، وذلك من بداية السورة الكريمة حتى الآية الرابعة عشرة.

ثانياً: الكشف عن بعض صفات الإنسان المذمومة، تلك الصفات التي يجب البعد عنها واجتنابها، وذلك من الآية الخامسة عشرة وحتى الآية العشرون.

ثالثاً: ذكر بعض مظاهر يوم القيامة، وما يكون في ذلك اليوم من ذل ومهانة للمسيء وما يكون فيه من رضا وطمأنينة للطائع، وذلك من الآية الحادية والعشرين وحتى نهاية السورة الشريفة. والآن أبدا في عرض كل غرض وما اشتمل عليه من فنون بلاغية فأقول وبالله التوفيق.

---

(1) ينظر البحر المحيط ٤٦٦/٨، وروح المعاني ١٥٢/٣٠.

القسم مع التهديد والوعيد للكفار:

﴿وَالْفَجْرِ وَلَيَالٍ عَشْرٍ وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ وَفِرْعَوْنَ ذِي الأَوْتَادِ الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾ صدق الله العظيم

تفسير المفردات:

الفجر: عن ابن عباس –رضي الله عنه– أنه الصبح الصادق، وقيل المراد صلاة الفجر، وخصه بعض المفسرين بفجر يوم النحر، وقيل أيضاً: المراد فجر المحرم لأنه أول يوم السنة، وبعضهم خصه بفجر ذي الحجة لقوله بعده "وَالْفَجْرِ وَلَيَالٍ عَشْرٍ"[1].

وقيل المراد به العيون التى تنفجر منها المياه، وفيها حياة الخلق، وهذا المراد بعيد.

وليال عشر: هن العشر الأول من ذي الحجة لما لها من الفضل العظيم عن سائر أيام السنة، وروى عن ابن عباس أن المراد بهن العشر الأواخر من رمضان، وقيل: العشر الأول من المحرم، وقيل العشر الأول من رمضان المعظم، والأصح الأول[2].

الشفع والوتر: معناهما: الزوج والفرد، اختلف المفسرون فيهما فقيل تحمل على كافة الموجودات لأنها لا تخلو من هذين القسمين، وقيل هي الصلاة الزوجية والوتر الصلاة الفردية كالمغرب.

"واظهر الأقوال ما روي عن النبي –ﷺ–: "إن الشفع يوم النحر والوتر يوم عرفة لأنه تاسع أيام الليالي المذكورة"[3].

والليل إذا يسر: المراد بالليل جنس الليل، وقيل المراد ليلة النحر.

يسر: أي يذهب وينقضي وقيل: "وقت أن يسرى فيه السارون بعد أن أخذوا حظهم من النوم"[4].

---

(1) ينظر تفسير الفخر الرازي ١٣٢/١٦، ١٣٣.

(2) الكشاف ٥٨٥/٤.

(3) غرائب القرآن ورغائب الفرقان ٩٠/٣٠.

(4) ينظر الفخر الرازي ١٦٥/١٦، التفسير الوسيط ٣٠٥٢٤.

هل في ذلك قسم لذي حجر: الحجر: العقل سمي بذلك لأنه يحجر على التصرفات فيمنع القبيح منها ويحول دون الوقوع في الخطأ. وقيل لذي حجر: لذي ستر من النار، والمعنى متحد فمن حجر عليه عقله ومنعه من الوقوع في الخطأ فقد ستره من النار ستره وحفظه منها.

ألم تر كيف فعل ربك بعاد: "عاد قبيلة كانت تسكن الأحقاف وهو مكان في جنوب الجزيرة العربية وهم عاد بن عوض بن إرم بن سام ابن نوح عليه السلام".

إرم ذات العماد: إرم جد عاد، وقيل: إرم هي مدينتهم وأرضهم، وقيل: "إرم أي هلك أي أهلك الله ذات العماد"[1].

ذات العماد: صفة لإرم أي طوال كالأعمدة وقيل: ذات الرفعة أو ذات الوقار أو ذات طول العمر[2].

قال الزمخشري –رحمه الله– "ذات العماد": اسم المدينة، وقرئ بعاد "أرمَّ ذات العماد": أي جعل الله ذات العماد رميماً، بدلاً من فعل ربك.

التي لم يخلق مثلها في البلاد: "البلاد: جمع بلد وبلده، وهي مكان محدود لسكان محدودين.

وثمود الذين جابوا الصخر بالواد:

ثمود: قبيلة مشهورة باسم جدهم ثمود أخي جديس وهما ابنا عابر ابن أدم بن سام بن نوح عليه السلام، كانوا عرباً من العاربة يسكنون الحجر بين الحجاز وتبوك"[3].

"جابوا": من الجوب أي القطع أي قطعوا الصخر والمعني قطعوا الصخر واتخذوا منها بيوتاً.

الواد: اسم للأرض المنخفضة بين مكانين مرتفعين، والمراد به مكان سكناهم، وهو علم بالغلبة على مساكن ثمود، وقد فتحه النبي –ﷺ– سنة سبع من الهجرة، ويسمى "الحجر" أيضاً.

وفرعون ذي الأوتاد: فرعون: هو فرعون موسى.

الأوتاد: التي كان يعذب عليها وبها من يعصي أمره، أو أنه وصف بذلك لكثرة جنوده وخيامهم التي يضربون أوتادها.

---

(1) الدر المنثور في تفسير المأثور للسيوطي ٦/٣٨٧.

(2) الكشاف ٤/٥٨٦.

(3) روح المعاني ٣٠/١٥٨.

وقيل ذي الأوتاد: أي ذي الملك والرجال: وقيل: كانت ملاعب يلعبون تحتها لأجله... فبين الله -سبحانه- لنبيه -ﷺ- أن كل ذلك مما تعظم به الشدة والقوة والكثرة لم يمنع من ورود هلاك عظيم بهم[1].

وقال الشيخ سيد قطب -رحمه الله- "وهي على الأرجح الأهرامات التي تشبه الأوتاد الثابتة في الأرض المثبته البنيان"[2].

وقيل الأوتاد: الجنود والعساكر الذين يشدون ملكه ويقوونه.

الذين طغوا في البلاد:

الطغيان: مجاوزة الحد.

البلاد: المراد بلادهم، والجمع علي اعتبار التوزيع أي طغت كل أمة في بلادهما[3].

فأكثروا فيها الفساد:

الفساد: ضد الصلاح، وهو يشمل جميع أنواع الإثم والمعاصي.

فصب عليهم ربك سوط عذاب:

الصب: "حقيقته إفراغ ما في الظرف وهو هنا مستعار لحلول العذاب دفعة وإحاطته بهم كما يصب الماء علي المغتسل أو يصب المطر علي الأرض، فوجه الشبه مركب من السرعة والكثرة"[4].

"سوط" آله ضرب تتخذ من جلود يضرب بها الخيل ونحوه، أي عذاب كالسوط في سرعته وشدته وتتابعه.

وقيل: "السوط في الأصل مصدر من ساط بسوط إذا خلط وسمي بذلك لأنه يخلط الدم باللحم، وقيل: سمي سوط لأنه بالنسبة لعذاب الآخرة كالسوط"[5].

إن ربك لبالمرصاد:

المرصاد: المكان الذي يقوم به الرصد، وهو مفعال كميقات،

وقيل: المرصاد صيغة مبالغة كالمطعام.

---

(1) الفخر الرازى ١٦٩/١٦.

(2) الفخر الرازي ٦٩/١٦.

(3) في ظلال القرآن ٣٩٠٤/٣٠.

(4) التحرير والتنوير ٣٢١/٣٠.

(5) روح المعاني ١٥٩/٣٠.

والمعنى: أي بالمرصاد لكل فاعل، وهذه كناية عن مجازاة كل عامل بعمله.

المعنى العام الإجمالي للآيات:

في هذه السورة الكريمة التي بدأت بالقسم بأشياء عظيمة لها أثرها الديني والدنيوي، نجد البدء بالقسم بالفجر الذي يمثل بدءاً وانتشاراً ليوم جديد وانطلاقا من الناس لمعايشهم، فهو كما قال المفسرون[1]، يذكر بالعبث والنشور، ثم يقسم الحق سبحانه بتلك الأيام العشر من ذي الحجة التي لها من المآثر ما لها، والثواب فيها مضاعف، وفيها مناسك الحج الذي يمثل ركناً مهماً من أركان الإسلام، ثم يقسم بكل فرد وزوج في الكون فكأنه أقسم بالكون كله لأن المخلوقات كلها لا تخلوا من هذين الصنفين، ثم يختم القسم بالليل الذي هو آية من آيات الله: ﴿وَآيَةٌ لَّهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ﴾[2].

ولما كان كفار مكة مُصرين على كفرهم برسالة النبي -ﷺ- ومستمرين في تعذيبهم له -ﷺ- ضرب الله عز وجل مثلاً بالأمم البائدة الغابرة وما حاق بهم من الويل والهلاك لأنهم كذبوا الرسل وعتوا عن أمر ربهم، وفي ضرب هذا المثل وسياق هذه القصص تسلية له -ﷺ- وفيها أيضاً وعيد للكفرة وتحذير لهم بأن ذلك هو مصيرهم لا محالة إن استمروا على كفرهم.

فذكر سبحانه عاداً الأولى الذين قالوا: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾[3]، ثم ذكر ثموداً الذين أخذتهم صاعقة العذاب الهون وبصيحة واحدة صاروا كهشيم المحتظر، ثم ذكر فرعون الذي بلغ به الطغيان أنه قال: ﴿ما علمت لكم من إله غيري﴾[4]، حيث أخذه الله بذنبه فأهلكه ولم يغن عنه ماله ولا جاهه شيئاً، فكان ذلك مثلاً لعاقبة الفساد والطغيان، وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون، لأن الله تعالى مطلع على الخلق واراصد لأعمالهم ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾[5].

---

(1) ينظر الفخر الرازي ١٦/١٦٢.

(2) يس ٣٧.

(3) فصلت ١٥.

(4) القصص ٣٨.

(5) الزلزلة ٧، ٨.

تحليل الآيات:

"والفجر" افتتحت السورة بالقسم وهذا الافتتاح يسترعي الألباب لترقب المقسم عليه، فهو افتتاح يثير الانتباه، ثم تجد التعريف في "الفجر" للجنس، لأن المقصود هذا الوقت من كل يوم وقيل التعريف "للعهد" حيث إن المراد هو فجر يوم النحر كما قال بذلك بعض المفسرين[1].

وفي قوله: وليال عشر "تجد التنكير في "ليال" لأنها ليال معدودة من ليال السنة، أو لكونها مخصوصة بفضائل عظيمة، فالتنكير إما للتفخيم، وقيل للتبغيض.

ويقول الزمخشري –رحمه الله– فإن قلت: فما بالها مُنكرة من بين ما أقسم به؟ قلت: لأنها ليال مخصوصة من بين جنس الليالي، العشر وبعض منها، أو مخصوصة بفضيلة ليست لغيرها، فإن قلت: فهلا عرفت بلام العهد لأنها ليال معلومة معهودة؟ قلت: لو فعل ذلك لم تستقل بمعنى الفضيلة التي في التنكير"[2].

ومناسبة عطف "ليال عشر" علي "الفجر" أنه سبحانه لما ذكر الفجر وهو بداية النهار، ووقت انتهاء الليل، ناسب ذكر الليل للتضاد، ويكثر ذلك في القرآن الكريم حيث تجد ذكر النهار مقترناً بذكر الليل في كثير من آياته مثل قوله تعالي: ﴿وَالضُّحَىٰ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ﴾[3] وقوله تعالي: ﴿والليل إذا عسعس والصبح إذا تنفس﴾[4] وقوله سبحانه: ﴿والليل إذا يغشي والنهار إذا تجلىٰ﴾[5] وهكذا فالمناسبة هي التضاد.

وقوله تعالى: "الشفع والوتر" تجدهما معرفين، والتعريف يؤذن بأنهما معروفان وأنهما الشفع والوتر من الليال العشر"[6].

---

(1) ينظر الفخر الرازي ١٦٢/١٦.

(2) الكشاف ٥٨٥/٤.

(3) الضحي ١، ٢.

(4) التكوير١٧، ١٨.

(5) الليل ١،٢.

(6) التحرير والتنوير ٣١٥/٣٠.

وبعد أن أقسم سبحانه بالفجر وبالليال العشر أقسم بالشفع والوتر، وهذين اليومين هما يوم النحر ويوم عرفه- كما قال بذلك بعض العلماء- وذلك لشرفهما ومكانتهما العظيمة، وخصصها بالذكر للاهتمام.

وقوله تعالى: "والليل إذا يسر" لما أقسم سبحانه بالليالي المخصوصة، أقسم بالليل على العموم، فهو من باب عطف الأعم على الأخص، وقيل عطف على الفجر بجامع التضاد[1].

وحذفت الياء من "يسر" اكتفاء بالكسرة عنها، وهذا شائع معروف في كلام العرب للتخفيف، ولرعاية الفاصلة حتى تتوافق رءوس الآي. "و" "إذا" ظرف محض وليس مضمنا معنى الشرط[2].

والمراد من هذا القسم تحقيق المقسم عليه، لأن القسم من أنواع التوكيد.

وفي هذا القسم أيضاً تعريض بتحقيق حصول المقسم عليه للمنكرين، "والمقصود من تطويل القسم بأشياء التشويق إلى المقسم عليه"[3]، وبيان قيمة هذه الأشياء.

"فالقسم من المؤكدات المشهورة التي تمكن الشئ في النفس وتقوية، ويأتي في النظم القرآني مراعاة للحال والمقام الذي كان عليه وقت نزوله، حيث كانوا في مواقف متباينة منهم الشاك والمنكر والخصم والألد، فالقسم في كلام الله تعالى يزيل الشكوك ويحبط الشبهات ويقيم الحجة ويؤكد الأخبار ويقرر الحكم في أكمل صورة"[4].

وقد حذف فعل القسم واكتفي بالواو، وهذا كثير في القرآن وجواب القسم محذوف، وقال الزمخشري تقديره: لنعذبن "يدل عليه قوله" ألم تر... إلى قوله: فصب عليهم ربك سوط عذاب[5].

---

(1) التحرير والتنوير ٣٠/٣٦٥.

(2) ينظر البرهان ٤/١٩٥.

(3) التحرير والتنوير ٣٠/٣٦٢.

(4) من أسرار التوكيد في نظم القرآن الكريم ٢٦٦.

(5) الكشاف ٤/٥٨٦.

ويقول الألوسي =رحمة الله-: والمقسم عليه محذوف وهو "لنعذبن"، كما ينبئ عنه قوله تعالى شأنه: "ألم تر كيف فعل ربك بعاد ... إلخ"[1].

وقيل الجواب قوله: "إن ربك لبالمرصاد" والأول أرجح.

قوله تعالى: "هل في ذلك قسم لذي حجر" السؤال والاستفهام هنا للتقرير، أي: إن في ذلك قسماً لذي لب وعقل.

يقول الفخر الرازي —رحمه الله- "استفهام والمراد منه التأكيد كمن ذكر حجة باهرة ثم قال: هل فيما ذكرته حجة؟ والمعني: إن من كان ذا لب علم أن ما أقسم الله تعالى به من هذه الأشياء فيه عجائب ودلائل على التوحيد والربوبية، فهو حقيق بأن يقسم به لدلالته على خالقه"[2].

ومن النكات البلاغية في تلك الآيات الشريفة هذا الإسناد المجازي في قوله: "والليل إذا يسر" حيث أسند السري إلى الليل، فهو من باب "نهاره صائم" و"ليله قائم" من إسناد الفعل إلى زمنه.

وقد يكون في الآية استعارة، حيث جعل لليل إسراء فشبهه بما يعقل، ثم حذف المشبه به ورمز إليه بشئ من لوازمه وهو السرى، علي طريق الاستعارة بالكناية، وفي هذا ما فيه من براعة التصوير، ودقة التجسيم، وحسن التخييل، فجعل الليل مخلوق حي يسري، ففي ذلك روعة في الإبداع لا تداني.

"والأصل: يسرى حذفت الياء في الخط لأنها رأس الآية، ومن أثبتها في الإدراج جاء بها على الأصل وحذفها في الوقف اتباعاً للمصحف الذي لا يحل خلافه، وحسن ذلك لأن كل ما يوقف عليه يسقط إعرابه ومن أحسن ما قيل في يسري: أنه أقبل عند إدبار النهار"[3].

وكذلك تجد اسم الإشارة للبعيد في قوله: "هل في ذلك" يعود إلى تلك الأشياء المقسم بها، وفيه من التعظيم ما لا يخفي، دل على ذلك لام البعد المراد بها التعظيم وبعد المكانة. وتنكير "قسم" للتعظيم.

---

(1) روح المعاني ١٥٥/٣٠.

(2) الفخر الرازي ١٦٦/١٦.

(3) إعراب القرآن للنحاس ٦٩٤.

"واللام في قوله: "لذي حجر" لام التعليل أي قسم لأجل ذي عقل يمنعه من المكابرة فيعلم أن المقسم بهذا القسم صادق فيما أقسم عليه"[1].

وقوله: "هل في ذلك....." جملة معترضة بين القسم وما بعده من جوابه أو دليل جوابه.

وقد وجدت في البرهان للزركشي قوله: من معاني "هل" تأتي للتمني أي بمعنى التمني، كما في قوله تعالى: هل في ذلك قسم لذي حجر"[2].

"وفيه تحقيق وتقرير لفخامة الأشياء المذكورة المقسم بها وكونها مستحقة لأن تعظم بالإقسام بها فيدل على تعظيم المقسم عليه وتأكيده من طريق الكناية"[3].

وقوله تعالى: "ألم تر كيف فعل ربك بعاد" هذا هو دليل جواب القسم المحذوف أي: لتعذبن أيها الكافرون كما عذب من قبلكم مثل عاد وثمود وفرعون".

وبدأ بذكر بعض من عذبوا بسبب تكذيبهم للرسل على سبيل الاستشهاد

والاستفهام في "ألم تر" للتقرير، والرؤية علمية، ويجوز كونها بصرية لمن شاهد آثار هؤلاء المذكورين[4].

والخطاب في "وتر" وإن كان موجهاً للنبي -ﷺ- إلا إنه عام.

و"كيف" إما أن تكون استفهاماً معلقاً فعل الرؤية عن العمل في المفعولين، وإما أن يكون اسماً مجرداً عن الاستفهام في محل نصب على المفعولين لفعل الرؤية البصرية"[5].

---

(1) التحرير والتنوير ٣٠/٣١٧.

(2) ينظر البرهان ٤/٤٣٤.

(3) روح المعاني ٣٠/١٥٥.

(4) التحرير والتنوير ٣٠/٣١٨.

(5) التحرير والتنوير ٣٠/٣١٨.

وقوله: "فعل" يقول الزركشي: "وحيث أطلقت فعل في كلام الله تعالى فهي محمولة على الوعيد الشديد"[1].

وقوله: "ربك" في إسناد الفعل إلى ربك طمأنينة للمؤمن وبخاصة للنبي -ﷺ- وصحبه بمكة حيث عانوا من بطش الجبارين وطغاة المجرمين[2].

وعدل عن اسم الجلالة إلى التعريف بإضافة "رب" إلى ضمير المخاطب للإشعار بالتأييد وفيه إعزاز وتشريف له -ﷺ-.

وقوله تعالى: "إرم ذات العماد".

"إرم" عطف بيان لعاد لأنه جده الأدنى، وفيه زيادة تعريف بعاد.

والمراد قبيلة عاد، فإطلاق الأب على نسله مجاز شائع حتى ألحقه بعضهم بالحقيقة.

"ومنع "إرم" من الصرف للعلمية والتأنيث، وصرف عاد باعتبار الحي، وقد يمنع من الصرف باعتبار القبيلة أيضاً.

ورجع اعتبار الصرف فيه بخفته لسكون وسطه، وقال بعضهم منع "إرم" من الصرف للعميلة والعجمة" وهما موجودان في عاد أيضاً إلا أنه لخفته يجوز فيه الصرف وعدمه"[3].

فقوله: "إرم": عطف بيان لعاد أو بدل، وقيل اسم مدينتهم وأرضهم.

"وقيل": "إرم" أي هلك، أي: أهلك الله ذات العماد[4].

وقوله: "ذات العماد" صفة لعاد، وأنث لأن المراد بعاد القبيلة، وقيل: صفة "لإرم" أي طوال كالأعمدة، وقيل المعنى: ذات الرفعة أو ذات الوقار أو ذات طول العمر.

وقوله تعالى: "التي لم يخلق مثلها في البلاد".

هذه الجملة صفة أخرى لعاد، والمعنى: لقد وصل إلى عملك كيف أهلك الله هذه القبيلة التي كانت مشهورة بهذه الصفات.

---

(1) البرهان ١٢١/٤.

(2) ينظر في ظلال القرآن ٣٩٠٣/٣٠.

(3) روح المعاني ١٥٦/٣٠.

(4) الدر المنثور ٣٨٧/٦.

وبني الفعل "يخلق" للمفعول لأن الفاعل معلوم وهو الله سبحانه..

"وقيل بناه للمفعول إرادة للتعميم"(١).

والضمير في "مثلها" عاد إلى قبيلة "عاد" أو إلى مدينتهم "إرم".

"والتعريف في البلاد" للجنس، والظاهر أن لام التعريف هنا للاستغراق العرفي أي بلدان العرب وقبائلهم"(٢).

وقوله تعالى: "وثمود الذين جابوا الصخر بالواد"

"وثمود" عطف على عاد، ومنع من الصرف للعلمية والتأنيث.

"ومنع ثمود من الصرف لأن المراد به الأمة المعروفة، ووصف باسم الموصول لجمع المذكر في قوله: "الذين جابوا" دون أن يقول: التي جابت الصخر بتأويل القوم، فما وصف عدل عن تأنيثه تفننا في الأسلوب"(٣).

"والباء في قوله: "بالواد للظرفية" والجار والمجرور متعلق بجابوا أو بمحذوف هو حال من الفاعل أو المفعول، وقيل: الباء الآلة أو السببية متعلقة بجابوا أي جابوا الصخر بواديهم أو بسببه، وقيل: أول من نحت الجبال والصخور هم ثمود"(٤).

وقوله تعالى: "وفرعون ذي الوتاد".

"وفرعون" معطوف على ما قبله، و"ذي" بمعنى صاحب، وأضيف إلى الأوتاد أي الجنود لأن فرعون كان يستعبدهم فكأنه قد ملكهم فصاروا عبيداً له، وقد سبق الحديث عن ذلك.

وقوله تعالى: "الذين طغوا في البلاد".

---

(١) ينظر نظم الدرر للبقاعي ٢٧/٣.

(٢) تحرير والتنوير ٣٦٩/٣٠.

(٣) التحرير والتنوير ٣٢٠/٣٠.

(٤) روح المعاني ١٥٨/٣٠.

"الذين" أحسن الوجوه في إعرابه أن يكون في محل النصب على الذم، ويجوز أن يكون مرفوعاً على الإخبار أي: هم الذين طغوا، أو مجروراً على وصف المذكورين عاد وثمود وفرعون"[1].

والتعريف في "البلاد" للعهد أي في بلادهم، والجمع على اعتبار التوزيع أي طغت كل أمة في بلادها.

والطغيان هو مجاوزة الحد، وعبر عنه لقصد إظهار شدة عصيانهم وظلمهم.

وقوله تعالى: "فأكثروا فيها الفساد"

والضمير في "فيها" يعود إلى البلاد.

والمراد من ذكر هذه الصفات –والله أعلم– ما كان لهؤلاء جميعاً من العزة والمنعة والقوة والشدة، ومع ذلك أهلكوا، ففي الكلام تعريض بأن ما حدث لهؤلاء هو مصير المكذبين واقع لا محالة.

وقوله تعالى: "فصب عليهم ربك سوط عذاب"

"سوط عذاب" أي سوطاً من عذاب، على أن الإضافة هنا بمعنى "من" والعذاب بمعنى "المعذب به".

"والسوط في الأصل مصدر من ساط يسوط إذا خلط وسمي بذلك لأنه يخلط الدم باللحم، والتعبير بصب يوحي بكثرته وتتابعه واستمراره، وسمي سوط لأنه بالنسبة لعذاب الآخرة كالسوط"[2].

وأبهم سوط عذاب في هذه السورة، وفسره في غيرها من السور.

فمثلاً في سورة فصلت ذكر سبحانه عذاب عاد وثمود، وفي سورة غافر ذكر سبحانه عذاب فرعون وأتباعه، وقد كرر سبحانه تفصيل هذا العذاب في كثير من سور القرآن العظيم، فذكر

---

(1) الفخر الرازي ١٦٩/١٦.

(2) روح المعاني ١٥٩/٣٠.

سبحانه أن عاد أهلكوا بالريح الصرصر، وثمود اهلكوا بالصاعقة، وأغرق فرعون وأتباعه... وهكذا.

"وإضافة السوط إلى العذاب من إضافة الصفة للموصوف أي صب عليهم ربك عذاباً سوطاً أي كالسوط في سرعته وشدته وتتابعه، فهو تشبيه بليغ، وسميت أنواع العذاب النازلة عليهم سوطاً تسميه للشيء باسم آلته"[1].

قوله تعالى: "إن ربك لبالمرصاد".

وهذا تعليل لما قبله، وفيه وعيد للكفار والمشركين بأنه سبحانه سيحل بهم ما أحله بمن قبلهم.

وأكد الكلام لأن التوكيد فيه قوة وشدة في الوعيد، ففي الكلام تذييل وتعليل لإصابتهم بسوط العذاب.

وإضافة "رب" إلى ضميره -ﷺ- فيه طمأنينة وأنسا.

وتعريف "المرصاد: للجنس، أي بالمرصاد لكل فاعل، وهذا المثل كناية عن مجازاة كل عامل بعمله.

والباء في "بالمرصاد" للظرفية.

"وفي الكلام استعارة تمثيلية، شبه كونه تعالى حافظاً لأعمال العصاة مترقباً لها ومجاز على نقيرها وقطميرها بحيث لا ينجو منه سبحانه أحد منهم، بحال من مقعد على الطريق مترصداً لمن يسلكها ليأخذه فيوقع به ما يريد، ثم أطلق لفظ أحدهما على الآخر[2].

---

(1) الفخر الرازي ٥٤٠/١٦.

(2) روح المعاني ١٥٩/٣٠.

بعض الصفات المذمومة للإنسان التي يجب البعد عنها واجتنابها

﴿فَأَمَّا الإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلاَهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّيَ أَكْرَمَنِ * وَأَمَّآ إِذَا مَا ابْتَلاَهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّيَ أَهَانَنِ *كَلاَّ بَل لاَّ تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ * وَلاَ تَحَـٰضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ * وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلاً لَّمًّا * وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾[1]

تفسير المفردات:

الإنسان: قيل المراد به جنس الإنسان الكافر، وقيل المراد شخص بعينه هو المغيرة أو أبي خلف، وقيل: أمية بن خلف[2].

ابتلاه: أي اختبره والابتلاء يكون بالخير وبالشر.

وقال تعالى: "ونبلوكم بالشر والخير فتنة"[3].

فأكرمه: الإكرام هو نفع لا تلحق فيه غضاضه ولا مذلة، والمعنى: رفع شأنه وأعطاه الخير.

نعَّمة: جعله في نعمة أي في طيب عيش.

قدر عليه رزقه: أعطاه بقدر محدود أي بقلة[4].

أهانن: الإهانة أي المعاملة بالذل.

أما: حرف يفيد التفصيل وهو حرف شرط ويفيد التوكيد أيضاً.

كلا: حرف ردع وزجر.

بل: حرف إضراب وانتقال.

اليتيم: هو الذي مات وهو صغير.

---

(1) سورة الفجر الآية (١٤-٢٠).

(2) ينظر الفخر الرازي ١٧١/١٦.

(3) الأنبياء ٣٥.

(4) التحرير والتنوير ٣٣٠/٣٠.

ولا تحاضون: أي لا يحض ويحث بعضكم بعضاً بمعنى لا يدفع بعضكم بعضاً، بمعنى الترغيب في فعل الشيء.

المسكين: المراد منه المحتاج فهو يعم الفقير[1].

طعام المسكين: أي إطعامه.

التراث: المال الموروث عن الغير.

لمًا: اللم هو الجمع الكثير أي بدون تفرقة بين الحلال والحرام.

جماً: الجم هو الكثرة والمعنى تحبون المال حباً كثيراً شديداً بحرص.

المعنى العام الإجمالي للآيات:

لما ذكر سبحانه في الآية السابقة على هذه الآيات قوله تعالى: "إن ربك لبالمرصاد" كأنه قيل: إنه تعالى لبالمرصاد في الآخرة فلا يريد إلا السعي للآخرة، فأما الإنسان فإنه لا يهمه إلا الدنيا ولذاتها وشهوتها فإن وجد الراحة في الدنيا يقول: ربي أكرمن، وإن لم يجد هذه الراحة يقول: ربي أهانن[2].

وهذه صفة مذمومة للإنسان حيث يعد الإكرام والإهانة قاصراً على الحياة الدنيا ومتاعها، وهذا خطأ، فالله عز وجل يريد الآخرة، وهو سبحانه يعطي الدنيا لمن يحب ومن لا يحب، ولا يعطي الآخرة إلا لمن أحب هذا مع العلم أن الابتلاء يشمل الغنى والفقر والخير والشر ولذا ذكر معهما في السورة الكريمة حيث إن الابتلاء بالغني يجب فيه الشكر على النعم ومراعاة حقوق الله تعالى فيها، والابتلاء بالفقر يجب معه الصبر.

---

(1) روح المعاني ١٦٢/٣٠.

(2) الفخر الرازي ١٧٠/١٦و ١٧١.

يقول الإمام الزمخشري =رحمه الله- فإن قلت: بم اتصل قوله: "فأما الإنسان قلت: بقوله: "إن ربك لبالمرصاد"، كأنه قيل: إن الله لا يريد من الإنسان إلا الطاعة والسعي للعاقبة، وهو مرصد بالعقوبة للعاصي، فأما الإنسان فلا يريد ذلك ولا يهمه إلا العاجلة وما يلذه وينعمه فيها"[1].

ثم يبين الله سبحانه وتعالى خطأ هذا الاعتقاد عند الإنسان وهو ارتباط الإكرام والإهانة بمتع الدنيا ولذاتها لينتقل إلى صفة قبيحة أخرى للإنسان غير الملتزم بشرع ربه، فيسوق الحق سبحانه مشنعاً عليهم عدم إكرامهم لليتيم الضعيف الذي فقد عائله فهو أحوج ما يكون للإكرام، ثم يذكر صفة مذمومة أخرى وهي حرصهم على الدنيا فلا يطعمون مسكيناً فإطعام المسكين والمحتاج من صفات الأبرار، قال تعالى: ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِيناً وَيَتِيماً وَأَسِيراً إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لاَ نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلاَ شُكُوراً﴾[2].

ولكن المخاطبين في سورة الفجر أبعد ما يكونون عن ذلك، ثم ذكر سبحانه رذيلة جديدة لهم حيث يأكلون التراث أكلاً شديداً ولا يعطوا نصيباً غيرهم في هذا الميراث.

"وكانوا لا يورثون النساء ولا الصبيان الصغار، وقيل: كانوا يأكلون ما جمعه الميت من الظلمة وهم عالمون بذلك، يجمعون بين الحلال والحرام، ويسرفون في إنفاق ما ورثوه لأنهم ما تعبوا في تحصيله"[3].

ثم ختم تلك الصفات المذمومة بحرصهم وشغفهم بالمال وجمعهم له غير عابئين بحلال أو حرام، مع عدم مراعاتهم لحق الله في هذا المال وعدم إنفاقه في وجوه الخير.

وقد ذكرت تلك الصفات المذمومة متبوعة بالزجر والردع، حتى يتجنبها الإنسان ويبتعد عنها.

---

(1) الكشاف ٤/٥٨٨.

(2) الإنسان ٨، ٩.

(3) البحر المحيط ٨/٧٤١.

تحليل الآيات:

قوله تعالى: "فأما الإنسان....."

الفاء في قوله: "فأما" للتفريع على ما تقدم ولترتيب ما بعدها على ما قبلها.

"وهذه الفاء لا تمنع أن يعمل ما بعدها فيما قبلها، وإن كانت فاء دخلت في خبر المبتدأ لأجل "أما" التي فيها معنى الشرط وبعد "أما" الثانية مضمر به وقع التوازن بين الجملتين، تقديره: فأما إذا هو ما ابتلاه"[1].

فإنه سبحانه لما ذكر حال الأمم السابقة وترفهم ومجونهم وتكذيبهم وما حاق بهم من عذاب، ذكر المشركين بأن حالهم مماثل لحال لهؤلاء فهم يعتقدون أن إكرام الله تعالى لهم حقا لهم لشرفهم وعلو قدرهم. "فنبه الله على خطأ اعتقادهم بمناسبة ذكر مماثلة مما اعتقده الأمم قبلهم الذي كان موجباً صب العذاب عليهم، وأعلمهم أن أحوال الدنيا لا تتخذ أصلاً في اعتبار الجزاء على العمل، وأن الجزاء المطرد هو جراء يوم القيامة"[2].

"وحرف" أما "يفيد تفصيلا في الغالب، أي يدل على تقابل بين شيئين من ذوات وأحوال، ولذلك قد تكرر في الكلام، فليس التفصيل المستفاد منها بمعني تبيين مجمل ما قبلها، بل هو تفصيل وتقابل وتوازن، وهو ضرب من ضروب التفصيل الذي تأتي له "أما" فارتباط التفصيل بالكلام السابق مستفاد من الفاء الداخلة على "أم"، وإنما تعلقه بما قبله تعلق الموزع بمنشئة لا تفصيل بيان على مجمل، فالمفصل هنا أحوال الإنسان الجاهل في حالتين، وهذا التفصيل ليس من قبيل تبيين لمجمل، ولكنه تمييز وفصل بين شيئين أو أشياء تشتبه أو تختلط"[3].

---

(1) البحر المحيط ٨/٤٧٠.

(2) التحرير والتنوير ٣٠/٣٢٦.

(3) التحرير والتنوير ٣٠/٣٢٨.

وتعد "أما" من عناصر التوكيد في النظم القرآني، وهي بالفتح والتشديد حرف شرط وتفصيل وتوكيد، أما كونها حرف شرط فبدليل لزوم الفاء بعدها، والتفصيل أكثر أحوال "أما" حيث يقال في إعرابها حرف شرط وتفصيل[1].

والمراد بالإنسان هنا جنسه، وقيل المراد به الكافر، ولفظ الإنسان مبتدأ، وخبره فيقول.....":

وقيل المراد بالإنسان شخص معين هو المغيرة أو أبي بن خلف وقيل: أميه بن خلف.

وقيل: التعريف في "الإنسان" للجنس، ولكنه استغراق عرفي مقصود به المشركون[2].

"ولما كان المقصود التعريف بحاله عند الابتلاء قدم الظرف الدال على ذلك على الخبر فقال: "إذا، وأكد الأمر بالنافي فقال: "ما ابتلاه أي عاملة معاملة المختبر بأن خالطه بما أراد مخالطة تميله وتحيله.

"ربه: أي الذي أبدعه وأحسن إليه بما يحفظ وجوده ليظهر شكره أو كفره[3] والفاء في قوله سبحانه "فأكرمه" تفسيرية، فإن الإكرام وما عطف عليه هو عين المراد بالابتلاء.

قوله تعالى: "فيقول ربي أكرمن".

هذا هو خبر المبتدأ الذي هو الإنسان، "ودخول الفاء لما في "أما" من معنى الشرط، والظرف المتوسط بين المبتدأ والخبر في تقدير التأخير كأنه قيل: فأما الإنسان فقائل ربي أكرمن وقت الابتلاء وكذا فيقول الثاني خبر لمبتدأ تقديره وأما هو إذا ما ابتلاه ربه، وسمي كلا الأمرين من بسط الرزق وتقديره ابتلاء لأن كل واحد منهما اختبار للعبد، فإذا بسط له فقد اختبر حاله أيشكر أم يكفر، وإذا قدر عليه فقد اختبر حالة أيصبر أم يجزع"[4].

---

(1) ينظر من أسرار التوكيد في نظم القرآن الكريم ٢٦٨.

(2) ينظر التحرير والتنوير ٣٢٨/٣٠.

(3) نظم الدرر ٣٢/٣.

(4) مدارك التنزيل وحقائق التأويل للنسفي ٣٨٦.

والمراد بقوله: "فيقول" على سبيل التفاخر، "ويقول" الثانية على سبيل التضجر والتأفف وعدم الرضا، وهذا المعنى المراد من سمات الإنسان الكافر وربما كان جنس الإنسان على العموم في حالة عدم تيقظه وفطنته لحالتي الفقر والغني.

"وتقديم" "ربي" على فعل أكرمن، وفعل أهانن دون أن يقول: أكرمني ربي، أو أهانني ربي، لقصد تقوية الحكم أي يقول ذلك جازماً به غير متردد وجملتا "فيقول" في الموضعين جوابان لـ "أما" الأولى والثانية، أي: يطرد قول الإنسان هذه المقالة كلما حصلت له نعمة، وكلما حصل له تقتير رزق"[1].

والتعبير بالفعل المضارع "يقول" في الجوابين لإفادة تكرار ذلك القول وتجدده كلما حصل مضمون الشرطين.

وفي ذلك ذم لهذا الاعتقاد الخاطئ، فالواجب لمن ربه بالمرصاد أن يسعى للعاقبة ولا تهمة العاجلة، وهو قد عكس، فإنه إذا امتحنه الله تعالى بالنعمة تفاخر وظن انه أعطاه لأنه أهل لذلك وظن أن الإكرام في كثرة الحظ من الدنيا.

وقوله تعالى: "وأما إذا ما ابتلاه فقدر عليه رزقه..."

"قال سبحانه" فأما الإنسان" بالفاء في الإكرام، وهنا "وأما" بالواو، لأن رحمة الله تعالى سابقة على غضبه، وابتلاؤه بالنعم سابق على ابتلائه بإنزال الآلام، فالفاء تدل على كثرة ذلك القسم.

ثم إنه سبحانه قال في الأولى "فأكرمه" ولم يقل في الثانية "فأهانه" وذلك لأن الإكرام في الأولى واقع فعلاً، وأما الإهانة في الثانية فمتوهمة لأن تقتير الرزق ليس بالضرورة أن يكون إهانة

---

(1) التحرير والتنوير ٣٠/٣٣٠،٣٣٦.

من الله للإنسان فقد يكون ابتلاء لرفعة الدرجات فهو غير صادق في الإهانة، لذا لم يحك الله تعالى عنه ذلك"[1].

قوله: فقدر "بالتخفيف، وقرأ بالتضعيف، قال الجمهور هما بمعني واحد بمعني ضيق، والتضعيف فيه للمبالغة لا للتعدي"[2].

وإسناد "أكرمه" و"نعمه" وقدر عليه رزقه "للرب تعالى لأنه سبحانه المسبب لكل ذلك فقد سخر الأسباب وهيأ الأحوال لهذا كله.

"واقتصر سبحانه على تقتير الرزق في مقابلة النعمة دون غير ذلك من الأمراض والآفات للإشعار بأن هذا الإنسان يعتبر دنياه جنته ومنتهى آماله لا يفكر إلا في المال ولا يحزن إلا من أجله"[3].

"والهاء في قوله: "رزقه" يجوز أن تعود على الإنسان من إضافة المصدر إلى المفعول، ويجوز أن تعود إلى "ربه" من إضافة المصدر إلى فاعله"[4].

وقوله تعالى: "كلا بل لا تكرمون اليتيم".

"كلا" أي ليس الأمر كما ظننت، وهو ردع وزجر[5].

وذمه بقوله : "كلا" لأنه تناسي نعم الله عليه من الدين وصحة البدن ...الخ، ولم يذكر إلا نعمة المال فاستحق الزجر، أو زجره لأنه اعتقد حصول الاستحقاق في ذلك الكرم.

ففي ذلك ردع وزجر عن هذا القول الخاطئ الصادر من الإنسان، في حالتي الغني والفقر، أي ليس الأمر كما توهم.

---

(1) ينظر الفخر الرازي١٦/١٧٢.

(2) البحر المحيط ٨/٤٧٠.

(3) التفسير الوسيط ٣٠/٥٤٢،٥٤٣.

(4) التحرير والتنوير ٣٠/٣٣٠.

(5) نزهة القلوب في تفسير القرآن للسجستاني ٥١٠.

وقد كان الإسلام يواجه في مكة حالة من التكالب على جمع المال بكافة الطرق، وكان ضعف اليتامى مغرياً بانتهاب أموالهم وبخاصة ما يتعلق بالميراث، وفي هذه الآيات فوق الكشف عن واقع نفوسهم، تنديد بهذا الواقع وردع عنه، يتمثل في تكرار كلمة "كلا" كما يتمثل في بناء التعبير وإيقاعه وهو يرسم بجرسه شدة التكالب وعنفه"[1].

وجاء بحرف الإضراب "بل" لتعديد خطاياهم واتصافهم بكل هذه الصفات المذمومة.

"وفي هذا انتقال وترق من ذمه بالقبيح من القول إلى الأقبح من الفعل، والالتفات إلى الخطاب لتشديد التقريع وتأكيد التشنيع، وقيل: هو بتقدير "قل" فلا التفات، نعم فيه من الإشارة إلى تنقيصهم ما فيه"[2].

وقوله: "لا تكرمون" جمع باعتبار معنى الإنسان إذ المراد هو الجنس والمراد: بل لكم أفعال مذمومة أشد شراً مما ذكر، منها أنكم لا تكرمون اليتيم ولا تحسنون إليه.

فحرف "بل" للإضطراب الانتقالي من ذمهم على القبح من القول، إلى ذمهم على القبح بما هو أشنع من ذلك.

وجملة: "لا تكرمون اليتيم" استئناف، كما يقتضيه الإضراب، فهو إما استئناف ابتداء كلام، وإما اعتراض بين كلا وأختها[3].

والتعريف في "اليتيم" للجنس، أي لا تكرمون اليتامى.

قوله تعالى: "ولا تحاضون على طعام المسكين".

"تحاضون" بحذف إحدى التاءين من تتحاضون، فقد حذفت إحدى التاءين اختصارا للتخفيف.

---

(1) في ظلال القرآن ٣٩٠٦/٣٠.

(2) روح المعاني ١٦١/٣٠.

(3) التحرير والتنوير ٣٣٢/٣٠.

"طعام المسكين" أي إطعامه، فالطعام مصدر بمعني الإطعام كالعطاء بمعنى الإعطاء، ويجوز أن يكون على حذف مضاف أي على بذل طعام.

والتعريف في "المسكين" للجنس.

"وقد حصل في الآية احتباك لأنهم لما نفي إكرامهم اليتيم وقوبل بنفي أن يحضوا على طعام المسكين على أنهم لا يحضون على إكرام آيتاهم أي لا يحضون أولياء الأيتام على ذلك، وعلى أنهم لا يطعمون المساكين من أموالهم"[1].

وقوله تعالى: "وتأكلون التراث أكلا لما".

هذا بيان لرذيلة أخرى وصفة مذمومة جديدة متصفون بها.

"المراد بالأكل مطلق الانتفاع، وخص الأكل بالذكر لأنه يشمل معظم وجوه التصرفات المالية"[2].

"التراث": أصله "وُرث"، والتاء تبدل من الواو المضمومة نحو تجاه وجاء من واجهت، وهو المال الموروث أي: الذي يخلفه الرجل بعد موته وكما قلت فإن أصله "وراث" على وزن "فُعال" من مادة ورث بمعني مفعول، وأبدلت واوه تاء على غير قياس.

وتعريف "التراث" عوض عن المضاف إليه، أي: تراث اليتامى "والكل مستعار للانتفاع بالشيء انتفاعاً لا يبقي منه شيئاً، وكما يقول الشيخ الطاهر بن عاشور-رحمه الله-: "وأحسب أن هذه الاستعارة من مبتكرات القرآن إذ لم أقف على قبلها من كلام العرب.

وأشعر قوله: "تأكلون" بان المراد التراث الذي لا حق لهم فيه، ومنه يظهر وجه إيثار لفظ "التراث" دون أن يقال: "وتأكلون المال" لن التراث مال مات صاحبه"[3].

قوله: -أكلاً لما- مفعول مطلق مبين للنوع، وفيه وصف الأكل بالمصدر للمبالغة.

فاللمم مصدر جُعل نعتاً للأكل، والمراد به الفاعل أي: أكلاً لاما وكذلك قوله: "حباً جما" مفعول مطلق مبين للنوع.

---

(1) التحرير والتنوير ٣٠/٣٣٣،٣٣٤.

(2) التفسير الوسيط ٣٠/٥٤٥.

(3) التحرير والتنوير ٣٠/٣٣٤.

يعض مظاهر يوم القيامة:

﴿كَلاَّ إِذَا دُكَّتِ الأَرْضُ دَكّاً دَكّاً وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفّاً صَفّاً وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الإِنسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى يَقُولُ يَلَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي فَيَوْمَئِذٍ لاَّ يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ وَلاَ يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ يَأَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً فَادْخُلِي فِي عِبَادِي وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾

تفسير المفردات:

كلا: حرف ردع وزجر.

دكت الأرض دكا دكا: الدك كسر الحائط والجبل ونحوها وتكريره للدلالة على الاستيعاب، المراد أن الأرض دكت دكا متتابعاً حتى انكسر وذهب كل ما عليها وصار هباءً منثوراً، وقيل الدك: حط المرتفع بالبسط والتسوية، وكل ذلك تصوير لما يحدث عند النفخة الثانية.

ويقول الشيخ سيد قطب –رحمه الله: "دك الأرض تحطيم معالمها وتسويتها وهو أحد الانقلابات الكونية التي تقع في يوم القيامة"[1].

"وقيل دكا دكا معناه تحريكها، وقيل: تحمل الأرض والجبال فيدك بعضها على بعض"[2].

وقوله: "وجاء ربك" أي جاء أمر ربك وقضاؤه سبحانه".

يقول الزمخشري –رحمه الله– فإن قلت ما معنى إسناد المجيء إلى الله والحركة والانتقال إنما يجوزان على من كان في جهة؟ قلت هو تمثيل لظهور آيات اقتداره وتبيين آثار قهره وسلطانه، مثلت حاله في ذلك بحال ملك إذا حضر عساكره كلها ووزرائه وخواصه عن بكرة أبيهم ومن الواضح أن صور البيان جزء من حياة العرب، ترمز كل واحدة منها إلى شيء في حياتهم الواقعية أو النفسية

---

(1) في ظلال القرآن ٣٠-٣٩٠٦.

(2) الدر المنثور ٣٩٠/٦.

وليس هذا محتاج إلى بيان، فهي جزء من الحياة في بيئتهم قبل أن تكون بياناً في لغتهم[1]. فإذا تغيرت البيئة تغيرت معها الصور البيانية.

وأهل السنة على أن الله كما وصف نفسه بدون اللجوء للمجاز.

صفا صفا: أي مصطفين صفا بعد صف.

وجئ يومئذ بجهنم: أحضرت جهنم وظهرت وبرزت للكافرين والفاسقين في ذلك اليوم الذي تدك فيه الأرض.

والوثاق: الرباط الذي يقيد به الأسير.

راضية: سعيدة بما أعطاك الله من الثواب والنعيم.

مرضية: مرضي عنك بسبب إيمانك الصادق وأعمالك الصالحة.

المطمئنة: التي لا يلحقها خوف أو حزن، لأن الاطمئنان هو الاستقرار والثبات.

---

(1) ينظر البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري-د أبو موسى ص٥١٧.

المعنى العام الإجمالي للآيات:

تبدأ هذه الآيات الشريفة بحرف الردع "كلا" إنكاراً لأفعالهم المذكورة سابقاً من عدم إكرام اليتيم وعدم الحض على طعام المسكين، وغيرها من قبائح الصفات ورذائلها، وقد زجروا عن ذلك، وأتبع زجرهم إنذار بأنهم يوم القيامة يندمون على ذلك، ولات حين مندم.

ثم يسوق بعض مظاهر هذا اليوم العظيم حيث ترجف الأرض والجبال وتخرج الأرض أثقالها وتنزل الملائكة وتبرز جهنم، عند ذلك يتذكر الشقي ويعلم أن ما بعث به الرسل -عليهم السلام- حق وصدق، حيث لا ينفع التذكر لأن الوقت وقت حساب وقد مضى وقت العمل والابتلاء.

يقول عندئذ متمنياً بأسلوب فيه تحسر وتوجع: "يا ليتني قدمت لحياتي: هذه الحياة الآخرة التي تستحق أن يعمل لها، ويتنافس عليها.

ولكن هذا التمني لا ينفعه حيث يتولى الله سبحانه عذاب هذا الكافر ويربط هذا الجاحد بوثاق امتهانا لشأنه وتحقيراً له، حيث كان يدعى الشرف والرفعة ويتكبر في الدنيا".

ثم ختم الله سبحانه السورة الكريمة بالبشارة للمؤمنين، لأنه سبحانه لما ذكر حال العاصي وندمه وقوله: "ياليتني قدمت لحياتي"، ناسب ذكر حال المؤمن الطائع لربه حيث يناديه الله عز وجل تشريفاً له: "يا أيتها النفس المطمئنة... الخ، وفي ذلك اقتران الوعد وبالوعيد البشارة بالإنذار، وكل ذلك فيه ما فيه من الترغيب والترهيب، وهذا كثير في القرآن العظيم.

تحليل الآيات:

قوله تعالى: كلا إذا دكت الأرض دكا دكا"

"كلا" ردع لهم عن حبهم للمال، وإنكار لفعلهم، وزجر لهم عن أفعالهم السابقة، وهي عدم إكرام اليتيم، وعدم الحض على طعام المسكين.

"إذا دكت الأرض" استئناف جيء به بطريق الوعيد تعليلا للردع، وجواب "إذا" محذوف بعد صفا أو بعد قوله: "بجهنم"، أي كان ما كان من الأحوال"[1]. وهذا استئناف ابتدائي انتقل فيه من تهديدهم بعذاب الدنيا إلى الوعيد بعذاب الآخرة.

---

(1) غرائب القرآن ٣٠/٩٤.

والمعنى مرتبط بما قبله، فالإنسان الكافر مغرور يتوهم أن الفوز قاصر على متع الحياة الدنيا، ولا يصغي إلى دعوة الرسل، وقد زجرهم عن ذلك وأتبع زجرهم إنذارهم بيوم القيامة وما فيه من أهوال حيث يندمون ولات حين مندم.

وفي ذلك توطئة وتشويق لسماع ما يجئ بعده، وتهويل لشأن ذلك اليوم.

وتكرير الدك للدلالة على الاستيعاب، فليس الثاني توكيداً، بل ذلك نظير قولهم: جاءوا رجلا رجلا، والمعني: دكت الأرض دكا متتابعاً حتى أنكر كل ما عليها، وزلزلت مرة بعد مرة.

فقوله: "دكا دكا" حال والمعنى مكرراً عليها الدك.

"وهذا الدك متأخر عن الزلزلة"[1].

"ويجوز أن يكون "إذا" منصوباً يتذكر، ويؤمئذ "الثانية بدل منه"[2] وقوله: "دكا" الأولى منصوب على أنه مصدر مؤكد للفعل، والثاني منصوب على التوكيد للأول، وقيل تكرار دكا للدلالة على الاستيعاب.

يقول الشيخ الطاهر بن عاشور -رحمه الله-: "قوله: دكا دكا: يجوز أن يكون أولهما منصوب على المفعول المطلق المؤكد لفعله، ولعل تأكيده هنا لأن هذه الآية أول آية ذكر فيها دك الجبال، وإذ قد كان أمراً خارقاً للعادة، كان المقام مقتضياً تحقيق وقوعه حقيقة دون مجاز ولا مبالغة، فأكد مرتين هنا، فدكا الأولى مقصود به رفع احتمال المجاز عن "دكت" و"دكا" الثاني منصوباً على التوكيد اللفظي لدك الأول لزيادة تحقق إرادة مدلول الدك الحقيقي، لأن دك الأرض العظيمة أمر عجيب فلغرابته اقتضى إثباته زيادة تحقيق لمعناه الحقيقي ويجوز أن يكون مجموع المصدرين في تأويل مفرد منصوب على المفعول المطلق المبين للنوع، وتأويله: إنه دك يعقب بعضه بعضاً، وهذا الوجه أوفي بحق البلاغة فإنه معني زائد على التوكيد، والتوكيد حاصل بالمصدر الأول"[3].

قوله تعالى: "وجاء ربك"، وقيل: الكلام علي حذف مضاف والتقدير: "وجاء أمر ربك" أو قضاء ربك" أي ظهرت آياته وفي ذلك، تهويل وتفخيم لتلك الآيات.

---

(1) الفخر الرازي ١٧٤/١٦.

(2) غرائب القرآن ٩٤/٣٠.

(3) ينظر الفخر الرازي ١٧٤/١٦، التحرير والتنوير ٣٣٦/٣٠.

وتلك هي الصفة الثانية من صفات يوم القيامة، وفيه تأويل من حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه، فجعل مجيء آيات الله وقضاؤه مجيئاً له سبحانه وتفخيماً لشأن تلك الآيات.

واختار السلف–رضوان الله عليهم– وجوب الإيمان بآيات الصفات كما جاءت ولكن من غير تمثيل ولا تحديد ولا كيفية، والخلف يؤولون تلك الآيات.

وقوله: "الملك" أي جنس الملك، فيشمل جميع ملائكة السموات والأرض، وقيل التعريف في "الملك" للاستغراق.

فتعريف "الملك" للجنس فيراد فه الاستغراق أي "والملائكة".

وقوله صفاً صفاً: صفاً الأولي حال من الملك، وصفاً الثانية تكرار مراد به الترتيب والتصنيف أي صفا بعد صف، أي أقبل صفوف الملائكة، فيكون الثاني غير الأول، ولا يحتمل حمله على أنه مفعول مطلق مؤكد لعامله إذ لا معني للتأكد.

"وإسناد المجيء إلى الله تعالى إما مجاز عقلي أي جاء قضاؤه، وإما استعارة تشبيه ابتداء حسابه بالمجيء، وأما إسناده للملك فإما حقيقة أو على معني الحضور"[1].

والصف مصدر صف الأشياء إذا جعل الواحد حذو الآخر.

يقول الشيخ سيد قطب –رحمه الله:– "أما مجيء ربك والملائكة صفا صفا فهو أمر غيبي لا ندرك طبيعته ونحن في هذه الأرض، ولكننا نحسن وراء التعبير بالجلال والهول"[2].

وأري أن ما قاله الشيخ سيد قطب هو الصواب.

قوله تعالى: "وجيء يومئذ بجهنم".

هذا استئناف، أو عطف على ما قبله، ولذا يوقف على "بجهنم" باعتبار هذا التقدير، ويكون "يؤمئذ" الثانية متعلق بما بعده، والمعني: أحضرت جهنم وظهرت وبرزت للكافرين والفاسقين.

وقوله: يؤمئذ منصوب بقوله: "وجيء" وقوله: "بجهنم" قائم مقام الفاعل، وقوله: "يومئذ" أي يوم القيامة، وهو بدل من قوله تعالى: "إذا دكت الأرض".

---

(1) التحرير والتنوير ٣٣٨/٣٠.

(2) في ظلال القرآن ٣٩٠٦/٣٠.

واقتصر على ذكر "جهنم" لأن المقصود في هذه السورة وعيد الكفار والمشركين، ولكن الجنة محضرة آنذاك أيضا[1].

وقوله: "يومئذ" متعلق بفعل "جئ" والتقدير: وجئ يوم تدك الأرض دكا بجهنم.

وفي ذكر الدك ومجيء الملائكة وأمر الله وذكر جهنم زيادة في الإنذار والردع.

قوله تعالى: "يومئذ يتذكر الإنسان".

"يؤمئذ" بدل من "إذا" في قوله: "إذا دكت الأرض" وعامل النصب فيهما يتذكر، "وظاهر كلام الزمخشري أن العامل في البدل هو نفس العامل في المبدل منه، والمشهور خلافه، وهو أن البدل على نية تكرار العامل، أي تذكر ما فرط فيه وأني له الذكري"[2].

والمعني: يتذكر ما فرط فيه وما وقع فيه من ذنوب ومعاصي وتقصير في العبادة، وحب للمال والجاه، وعدم إكرام اليتيم.....

يقول الشيخ الطاهر بن عاشور =رحمه الله- قوله: "يومئذ" بدل من "إذا دكت الأرض"، والعامل في البدل والمبدل منه معاً فعل "يتذكر" وتقديمه للاهتمام مع ما في الإطناب من التشويق ليحصل الإجمال ثم التفصيل مع حسن إعادة ما هو بمعني "إذا" لزيادة الربط لطول الفصل بالجمل التي أضيف إليها إذا"[3].

والمراد بالإنسان "هو الكافر المقصر الموسوم بتلك الصفات المذمومة، فهو إظهار في مقام الإضمار لبعد معاد الضمير.

قوله تعالى: "وأني له الذكري".

"هذه جملة معترضة بين جملة "يتذكر الإنسان"، وجملة "يقول". و"أني" اسم استفهام مستعمل في الإنكار والنفي، والمعني: وأين له نفع الذكرى، فهو على حذف مضاف، وذلك لوجود التضاد بين قوله: "يتذكر" وقوله: "أني له الذكرى"، فهو يتذكر ولكن ذلك لا يفيده"[4].

---

(1) ينظر التحرير والتنوير ٣٣٨/٣٠.

(2) ينظر البحر المحيط ٤٧١/٨.

(3) التحرير والتنوير ٣٣٨/٣٠.

(4) ينظر الكشاف٥٩١/٤، التحرير والتنوير ٣٣٩/٣٠.

"وأنى" خبر مقدم، والذكرى" مبتدأ، وله متعلق بما تعلق به الخبر، أي: من أين تكون لـه الذكرى وقد فات أوانها، وقيل الكلام على حذف مضاف كما تقدم.

قوله تعالى: "يقول ياليتني قدمت لحياتي".

"هذه الجملة بدل اشتمال من يتذكر أو استئناف وقع جواباً عن سؤال نشأ منه، كأنه قيـل: ماذا يقول عند تذكره؟ فقيل: يقول يا ليتنى... الخ، واللام للتعليل، والمراد بحياته حياتـه في الآخـرة، ومفعول "قدمت" محذوف، والتقدير: ياليتني قدمت لأجـل حيـاتي هـذه أعمـالاً صالحـة انتفـع بـها فيها"[1].

والمعني: يقول هذا الشقى حين يـري العـذاب مـاثلاً أمامـه، "يـا ليتـني..." علـى سـبيل التحسر والتفجع.

فالتمني هنا للتحسر على ما فات والندم عليه، وقد حكى القرآن العظيم عنهم ذلـك فـى كثير من آياته مثل قوله تعالى: "يا ليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ونكـون مـن المؤمنـين"[2]. وهـم يعلمون أن هذا التمنى لا يفيدهم، فهو في حكم تمني المستحيل للتحسر.

"ويجوز أن يكون هذا القول منهم باللسان تحسراً فتكون الجملة حالاً من الإنسان أو بـدل اشتمال من جملة "يتذكر"[3]. لأن تذكره مشتمل على التحسر والندم، ويجـوز أن يكـون قولـه هـذا يقع في نفسه، فتكون الجملة "بياناً" لجملة: "يتذكر".

وحرف النداء "يا" للتنبيه اهتماماً بهذا التمني في يوم وقوع ما ذكر من العذاب.

وقد حذف مفعول "قدمت" للإيجاز ولوضوحه وظهوره أي قدمت من العمل الصـالح مـا ينفعني في الحياة الآخرة.

واللام في قوله: "لحياتي" يحتمل أن يكون للتعليـل أي: يـا ليتـني قدمـت أعمـالاً صالحـة لأجل الانتفاع بها، ويجوز كونها للتوقيت، فيكون المعني: يا ليتني قدمت صالحاً وقت حياتي في الدنيا لأنتفع بها، والأول أصح كما هو واضح.

---

(1) روح المعاني ١٦٤،١٦٥/٣٠.

(2) الأنعام ٢٧.

(3) ينظر التحرير والتنوير ٣٣٩/٣٠.

"قوله: "لحياتي"، ولم يقل لهذه الحياة، على معنى أن الحياة كأنها ليست إلا هذه الحياة في الدار الآخرة، والمعنى: يا ليتني قدمت عملاً في الدنيا ينجني من عذاب النار لأن أهل النار لا يموتون فيها ولا يحيون"[1].

وفي البرهان للزركشي: "قوله: لحياتي: اللام بمعنى "في" فهي للظرفية"[2].

وفي هذا ما فيه من التندم والتحصر على فوات ذلك.

ويكون في ذلك استعارة في الحروف، وموضع الاستعارة في استخدام حرف اللام حيث استعمل في معنى حرف "في"، والاستعارة في حرف اللام تابعة لتعلق معناها، حيث إن الاستعارة في الحروف تكون في متعلقات معانيها.

قوله تعالى: "فيومئذ لا يعذب عذابه أحد. ولا يوثق وثاقه أحد".

"يومئذ": أي يوم يكون ما ذكر من الأحوال المتقدمة، وهو ظرف مستقبل، والعامل فيه "لا يعذب".

وهذا العذاب قد فصل في مواضع أخرى من القرآن العظيم تحكي مشاهد يوم القيامة.

والفاء في "فيومئذ" رابطة لجملة: "لا يعذب" بجملة: "دكت الأرض" لما في إذا من معنى الشرط.

والعذاب: اسم عذب، والوثاق اسم مصدر أو ثق.

وخلاصة ما قيل في ذلك أن الضمير في "عذابه" ووثاقه إما لله تعالى فيكون المعنى: لا يتولى عذاب الله ووثاقه أحد سواه سبحانه، ولا يباشرهما غيره، فالعذاب مفعول به والوثاق كذلك، وفي هذا ما فيه من تعظيم العذاب والوثاق لأنه من الحق سبحانه وهو يتولاه بقدرته.

"وإما أن يكون الضمير للإنسان المعذب الموثوق، فيصير المعنى: لا يعذب أحد من أهل النار مثل عذاب من ذكر ولا يوثق مثل وثاقه أحد كأنه أشدهم عذاباً —نعوذ بالله من ذلك كله— وذلك واقع له بسبب سوء عمله وقبائح صنعه، وهذا وجه حسن، وهو الأرجح"[3].

---

(1) الفخر الرازي ١٦/١٧٧.

(2) البرهان ٤/٣٤١.

(3) ينظر الزمخشري ٤/٥٩١، روح المعاني ٣٠/١٦٥.

وقرأ ببناء "يعذب ويوثق" للمفعول، فتكون الهاء في عذابه ووثاقه للإنسان المسوم بتلك الصفات القبيحة.

"ونصب العذاب على المصدرية واقع موقع التعذيب إما لأنه بمعناه في الأصل، أو لأنه وضع موضعه، وكذلك الوثاق"[1].

"وقيل المراد بالمعذب جنس المتصف بذلك، وقيل المراد به أمية بن خلف، وقيل: أبي بن خلف"[2].

ولفظ "أحد" فاعل، أي لا يعذب كعذاب الله، ولا يوثق كوثاقه أحد، وهذا بالبناء للفاعل في يعذب ويوثق، وعلى قراءة للمفعول يكون "أحد" نائب فاعل.

يقول الشيخ الطاهر بن عاشور –رحمة الله:– "يعذب ويوثق "بالبناء لفاعل" "أحد" فاعل، وعذابه من إضافة المصدر إلى مفعوله، فضمير عذابه عائد إلى الإنسان في قوله: "يتذكر الإنسان"، وهو مفعول مطلق مبين للنوع على معنى التشبيه البليغ، أي عذاباً مثل عذابه في شدته، و"أحد" يستعمل في النفي لاستغراق الجنس، أي جنس الإنسان، فأحد في سياق النفي يعم كل أحد، وانتصاب "وثاقه" كانتصاب "عذابه" على المفعولية المطلقة لمعني التشبيه"[3].

بمعني لا يعذب أحد كعذابه، ولا يوثق أحد كوثاقه.

قوله تعالى: "يا أيتها النفس المطمئنة"..

ختم الله سبحانه السورة الكريمة بهذه البشارة العظيمة للمؤمنين، فإنه سبحانه لما ذكر حال الكافر الذي اطمأن إلى الدنيا وركن إليها وقصر في الخيرات وذكر عذابه، ناسب هنا أن يذكر المؤمن المطمئن وماله من نعيم، وذلك على عادة القرآن العظيم في اقتران الوعيد والإنذار بالوعد والبشارة.

---

(1) روح المعاني ١٦٥/٣٠.

(2) الفخر الرازي ١٧٧/١٦.

(3) التحرير والتنوير ٣٣٩/٣٠، ٣٤٠.

"وحرف النداء" "يا" لنداء البعيد حقيقة أو حكماً، وقد ينادى بها القريب إذا كان الخطاب المرتب على النداء في محل الاعتناء بشأن المنادي"[1].

والنفس المطمئنة هي النفس الآمنة من الخوف والعذاب والحزن في ذلك اليوم المذكور بسبب إيمانها الصادق وعملها الصالح.

"والكلام على إرادة القول، أي يقول الله تعالى على لسان ملائكته إكراماً للمؤمنين عند وفاتهم أو عند تمام حسابهم.....الآية"[2].

وقيل نزلت في حمزة بن عبد المطلب حين استشهد، أو في حبيب ابن عدى الذي صلبه أهل مكة، وجعلوا وجهة إلى المدينة، فقال: "اللهم إن كان لي عندك خير فحول وجهي نحو قبلتك" فحول الله وجهة نحوها فلم يستطع أحد أن يغيرها.

وقيل: لما مات ابن عباس –رضي الله عنهما– بالطائف، فجاء طير لم تر عين خلقته، فدخل نعشه، ثم لم يرخا رجا منه، فلما دفن تليت هذه الآية على شفير القبر، لا يدرى من تلاها.

وقيل: نزلت في عثمان بن عفان عندما اشترى بئراً وجعلها للمسلمين[3].

و"النفس" إما أن يكون اسم جنس، وإما أن يراد به المؤمنون، وإما أن يكون المراد به من ذكر قبل.

والمطمئنة اسم فاعل من اطمأن والمعنى هادئاً غير منزعج.

قوله تعالى: "ارجعي إلى ربك راضية مرضية".

إذا كان هذا من كلام الله تعالى فيكون قوله: "إلى ربك" إظهار في موضع الإضمار بقرينة تفريع فادخلي في عبادي عليه، وفي هذا ما فيه من تشريف لتلك النفس التي يناديها الله تعالى بتلك البشارة، كذلك ما في وصف "رب" من الولاء والاختصاص.

وأما إن كان ذلك من قول الملائكة، فيكون لفظ "ربك" جارياً على مقتضى الظاهر.

"والأمر في "ارجعي" مراد به تقييده بالحالين بعهد، وهما راضية، مرضية، وهذا استعمال الأمر في الوعد، والرجوع مجاز أيضاً"[1].

---

(1) البرهان في علوم القرآن ٤/٤٤٥.

(2) الوسيط ٣٠/٥٤٩.

(3) ينظر الدر المنثور ٦/٣٩١.

"والراضية" اسم مفعول، وأصله "مرضى عنها" فوقع فيه الحذف والإيصال، فصار نائب فاعل بدون حرف الجر، والمقصود من كل ذلك هو الزيادة في الإكرام والإنعام.

"والظرفان —راضية مرضية– منصوبان على الحال، والظاهر أن الحال الأولى مقدرة، وذكر الحال الثانية من باب الترقي، فقد قال سبحانه: "ورضوان من الله أكبر"[2].

قوله تعالى: "فادخلي في عبادي وادخلي جنتي".

"قال القفال: "هذا وإن كان أمراً في الظاهر، لكنه خبر في المعني، والتقدير: أن النفس إذا كانت مطمئنة رجعت إلى الله، وقال الله سبحانه لها: "فادخلي في عبادي وادخلي جنتي"، قال: ومجيء الأمر بمعني الخبر كثير في كلامهم"[3].

ويقال لها ذلك إما عند الموت، وإما عند البعث وإما عند دخول الجنة.

وقوله: "فادخلي" عطف على الجملة قبلها داخلة معها في حيز الفاء المفيدة للتعقيب من غير تراخ، وقدم قوله: "فادخلي في عبادي" لفضله وأهميته، وذكر "وادخلي جنتي" للتتميم.

"وتعدى الدخول الأول "بفي" وثانيها بدونها، لأن المدخول فيه إن كان غير ظرف حقيقي تعدى إليه في الاستعمال بفي، وإذا كان ظرفا حقيقياً تعدى إليه في الغالب بغير وساطتها"[4].

والفاء في قوله: "فادخلي" تفسيرية.

ويلحظ أن قوله: "فادخلي ....." تفصيل بعد إجمال لزيادة إدخال السرور عليهم.

وكرر فعل الدخول للاهتمام به تحقيقاً للمسرة لهم.

كما أن في إضافة "الرب" إلى ضمير النفس المطمئنة تشريف وتعظيم لها وزيادة في طمأنتها وإكرامها.

---

(1) التحرير والتنوير ٣٠/٣٤١.

(2) ينظر روح المعاني ٣٠/١٦٧.

(3) ينظر الفخر الرازي ١٦/١٧٧.

(4) روح المعاني ٣٠/١٦٨. وفي كتاب "البرهان" أن في تجيء لمعان كثيرة منها الظرفية: ثم يكون الظرف والمظروف حسيين نحو: "زيد في الدار" ومنه قوله تعالى: "فادخلي في عبادي وادخلي جنتي".

الخاتمة

تلك هي سورة كريمة من سور القرآن المعجز، ورغم قصرها تجدها قد حوت أغراضاً عديدة ارتبطت تلك الأغراض فيما بينها، فصبت جميعها في قالب واحد.

كما توجد تلك السورة الشريفة مرتبطة بالسورة قبلها ارتباطاً وثيقاً سوغ وجودها عقبها في الترتيب المصحفي، حتى "أن القائل بأن ترتيب السور أو بعضها باجتهاد الصحابة، لم ينف وجود المناسبة بين السور، فالجميع متفقون على أن استخراج المناسبة يتبع الناحية العقلية، وهذا فيه إظهار نوع من أنواع إعجازه الذي لا ينقضي"[1].

كما تجد السياق تارة عباراته قوية فيها ألفاظ تدل على الغلظة في العقوبة ليكافأ الجرم المرتكب، وتجدها أحياناً هامسة ناعمة كما في نهاية السورة الكريمة.

ولسورة الفجر فضل عظيم، فقد ورد عن النبي -ﷺ- أنه قال: "من قرأ سور الفجر في الليالي العشر غفر له، ومن قرأها في سائر الأيام كانت له نوراً يوم القيامة"[2].

وتجد السورة مليئة بالنكات البلاغية كالالتفات، والحذف، والإظهار في موضع الإضمار، والتقديم والتأخير، إلى غير ذلك مما يجعلها مجالاً خصباً للدراسة.

والله أسأل أن يتقبل هذا العمل بقبول حسن وأن يجعله في ميزان حسناتي يوم القيامة وينفعني به في الدنيا والآخرة إنه سميع الدعاء.

د/ محمد محمد الطاهر محمد
مدرس البلاغة والنقد

---

(1) الإعجاز البياني في ترتيب القرآن ٣٩٣.

(2) ينظر الكشاف ٥٩٢/٤.

المصادر والمراجع

١-الإعجاز البياني في ترتيب آيات القرآن وسوره: د. محمد أحمد يوسف القاسم، ط المجلد العربي، الطبعة الأولى، ٣٩٩هـ ١٩٧٩م.

٢-إعراب القرآن: لأبي جعفر أحمد بن محمد إسماعيل النحاس، تحقيق د/ زهيري غازي زاهد.

٣-البحر المحيط: لأبي حيان الأندلسي، ط دار الفكر والنشر والتوزيع بيروت.

٤-البرهان في علوم القرآن: للإمام بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ط دار الجيل بيروت، ١٤٠٨هـ-١٩٨٨م.

٥-البلاغية القرآنية في تفسير الزمخشري: د/ محمد محمد أبو موسي، ط، مكتبة وهبه، الطبعة الثانية، ١٤٠٨هـ-١٩٨٨م.

٦-التحرير والتنوير: الشيخ محمد الطاهر بن عاشور، ط الدار التونسية للنشر.

٧-التفسير الكبير ومفاتيح الغيب: للإمام الفخر الرازي، دار الفكر للطباعة والنشر، الطبعة الأولى ١٤٠١هـ-١٩١٨م.

٨-الدر المنثور في التفسير المأثور: لجلال الدين السيوطي، ط مطبعة النوار المحمدية.

١٠-روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني: للعلامة محمود الألوس البغدادي، ط دار الفكر.

١١- غرائب القرآن ورغائب الفرقان/للإمام نظام الدين الحسن بن محمد بن الحسين النيسابوري/ط الحلبي بمصر.

١٢- في ظلال القرآن للشيخ سيد قطب — ط دار الشروق الطبعة الثانية عشرة ١٤٠٦هـ١٩٨٦م.

١٣- الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل/ للإمام أبي القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشرى الخوارزمي/ ط مكتبة مصر سعيد جوده السحار وشركاه.

١٤- مدارك التنزيل وحقائق التأويل/ للإمام أبي البركات عبد الله ابن أحمد بن محمود النسقي/ ط دار السعادة.

١٥- من أسرار التوكيد في نظم القرآن الكريم د. محمود عبد العظيم عبد الله صفا ط دار الكتاب الجامعى ١٤١٤هـ/١٩٩٣م.

١٦- نظم الدرر في تناسق الآيات والسور للبقاعي/ط دار الكتاب الإسلامي بالقاهرة/ الطبعة الثانية ١٤١٣هـ ١٩٩٢م.

١٧- نزهة القلوب في تفسير غريب القرآن للإمام أبي بكر السجستاني.